(٥) إقامة الأدلة على وجود الإله القادر .

(٦) إنذار المشركين بأهوال يوم القيامة .

(٧) قصص موسى عليه السلام مع فرعون وما دار من الحوار بين فرعون وقومه والذى يكتم إيمانه .

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل .

(٩) تعداد نعم الله على عباده فى البر والبحر .

سورة فصلت

هى مكية وآيها أربع وخمسون ، نزلت بعد غافر .

أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : « اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلمه ولينظر بم يرد عليه ؟ فقالوا مانعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة فقالوا أنته يا أبا الوليد ، فأتاه فقال : يامحمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبدالمطلب ؟، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عتبة فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلمْ حتى نسمع قولك ، أما والله مارأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا ، وأن فى قريش كاهنا ، والله مانتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، يارجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا

لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغت ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » — حتى بلغ — « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » فقال عتبة : حسبك حسبك ، ماعندك غير هذا ؟ قال : لا ، فرجع إلى قريش فقالوا : ماوراءك ؟ قال ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، قالوا فهل أجابك ؟ قال والذى نصبها بِنْيَةً (يريد الكعبة) ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدرى ما قال ؟ قال لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة » .

وأخرج أبو نعيم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : « لما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة حٰمٓ أتى أصحابه فقال ياقوم أطيعونى فى هذا اليوم واعصونى بعده ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ماسمعت أذنى قط كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه» . وفى هذا الباب روايات كثيرة تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة وتلاوته صلى الله عليه وسلم أول هذه السورة عليه .

ومناسبتها ما قبلها :

(١) إنهما اشتركتا فى تهديد قريش وتقريعهم ، فقد توعدهم فى السورة السابقة بقوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ الخ » وهددهم هنا بقوله : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » .

(٢) إن كلتيهما بدئ بوصف الكتاب الكريم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) .

شرح المفردات

لايسمعون : أى لايقبلون ولا يطيعون ، من قولهم : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى : أى لم يقبله ولم يعمل به فكأنه لم يسمعه ، والأكنة واحدها كنان كأغطية وغطاء: وهى خريطة السهام؛ والمراد أنها فى أغطية متكاثفة ، والوقر: الثقل فى السمع.

الإيضاح

(حٰمٓ) تقدم الكلام فى هذا فى السورة قبلها .

(تنزيل من الرحمن الرحيم) أى هذا القرآن منزل من الله الرحمن الرحيم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وخص هذين الوصفين (الرحمن الرحيم) بالذكر لأن الخلق فى هـذا العالم كالمرضى المحتاجين إلى الدواء ، والقرآن مشتمل على كل مايحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان رحمة لهم ولطفا بهم كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

(كتاب فصلت آياته) أى هو كتاب بينت آياته، وميزت لفظا بفواصل ومقاطع،

ومبادئ للسور وخواتم لها ، وميزت معنى بكونها وعدا ووعيدا ، ومواعظ ونصائح ، وتهذيب أخلاق ورياضة نفس ، وقصص الأولين ، وتواريخ الماضين .

ونحو الآية قوله : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » .

(قرآنا عربيا) أى أنزلناه بلغة العرب ، ليسهل عليهم فهمه كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

وفى هذا امتنان من الله عليهم ليسهل عليهم قراءته وفهمه .

(لقوم يعلمون) معانيه لكونه جاء بلسانهم ، فهم أهل اللسان فيفهمونه بلا واسطة ، وغيرُهم لايفهمه إلا بوساطتهم .

(بشيراً ونذيراً) أى بشيراً لأوليائه بالجنة والنعيم المقيم إن داوموا العمل بما فيه من أوامر ونواه ، ونذيراً لأعدائه بالعذاب الأليم إن هم أصروا على التكذيب به والجدل فيه بالباطل وترك أوامره وفعل نواهيه .

ثم بين حال المشركين حين أنزل إليهم فقال :

(فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون) أى فاستكبر أكثر المشركين عن الإصغاء إليه ، ولم يقبلوه ولم يطيعوا ما فيه من أوامر ونواه ، إعراضا عن الحق .

ثم صرحوا بنفرتهم منه وتباعدهم عنه ، وذكروا لذلك ثلاثة أسباب تعللا واحتقاراً لدعوته :

(١) (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) أى إن قلوبنا فى أغطية متكاثفة مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا ، فهى لاتفقه ما تقول من التوحيد ولا يصل إليها قولك .

(٢) (وفى آذاننا وقر) أى وفى آذاننا صمم يمنعها من استماع قولك .

(٣) (ومن بيننا و بينك حجاب) أى ومن بيننا و بينك ستر يمنعنا عن إجابتك.

روى أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوبا وقال : يا محمد بيننا و بينك حجاب ، استهزاء منه .

وقصارى ما يقولون : إن قلوبهم نابية عن إدراك ماجئت به من الحق وتقبّله واعتقاده كأنها فى غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، وأسماعهم لايدخل إليها شىء منه كأن بها صمما ، والتباعد الدينين وتباعد الطريقين كان بينهم و بين رسول الله حجاب كثيف وحاجز منيع .

ثم بارزوه بالخلاف وشن الغارات الجدلية بما لم يبق بعده مجال للوفاق فقالوا :

(فاعمل إننا عاملون) أى فاعمل فى إبطال أمرنا جَهد طاقتك ، ونحن نعمل جاهدين فى فض الناس من حولك وتشتيت شمل من آمن بك حتى تبطل دعوتك .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) .

شرح المفردات

فاستقيموا إليه : أى فأخلصوا له العبادة ، ويل : أى هلاك ، لايؤتون الزكاة: أى لايفعلون مايزكى أنفسهم من الإيمان والعمل الصالح ، ممنون : أى مقطوع من قولهم منت الحبل إذا قطعته ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غلقٍ على الصديق ولا خيرى بممنونِ

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المشركون الأسباب التى تحول بينهم و بين قبول دعوته — أمر رسوله أن يجيب عن كلامهم بأنه لايقدر على جبرهم على الإيمان وحملهم عليه قسرا ،

فإنه بشر مثلهم ولا ميزة له عليهم إلا بأن الله أوحى إليه ولم يوح إليهم ، ثم ذكر أن خلاصة الوحى علم وعمل ، أما العلم فدعامته التوحيد ، وأما العمل فأسه الاستغفار والتوبة مما فرط من الذنوب ، ثم أردف ذلك بالتهديد لمن يشرك بالله ولا يزكى نفسه من دنس الشح والبخل ، وينكر البعث والجزاء والحساب يوم القيامة ، وينصرف إلى الدنيا ولذاتها ، وبعد أن ذكر وعيد الكفار أعقبه بوعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن لهم عند ربهم أجرا دائما غير مقطوع ولا ممنوع .

الإيضاح

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه) أى قل أيها الرسول لقومك : ما أنا إلا بشر مثلكم فى الجنس والصورة والهيئة ، ولستُ بملَك ولا جنّى لايمكنكم التلقى منى ، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ، بل أدعوكم إلى التوحيد الذى دلت عليه الدلائل الكونية وأيده النقل عن الأنبياء جميعا من آدم فمن بعده ، فأخلصوا له العبادة وسلوه العفو عن ذنوبكم التى سلفت منكم بالتوبة من شرككم — يتب عليكم ويغفر لكم .

(وويل للمشركين . الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) أى وخسارة وهلاك لمن أشرك بربه ولم يواس البائس الفقير بشىء من ماله ، يدفع به عوزه ، ويزيل خصاصته ، وأنكر البعث والحساب والجزاء ، وكان يقال : الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ، لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذاك أقوى دليل على استقامته وثباته وصدق نيته ، وصفاء طويته ؛ وما خُدِع المؤلّفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ، بها لانت شكيمتهم ، وزالت عصبيتهم ؛ وما ارتدت بنو حَنيفة بعد رسول الله إلا بمنعهم

للزكاة ، فعرّضوا أنفسهم للحرب ، والطعن والضرب ، إبقاء على أموالهم ولو ذهبت مهجهم وأرواحهم .

وقصارى ذلك — دمار وهلاك لمن أشرك بربه ، ولم يطهر نفسه من دنس الرذائل التى من أهمها البخل بالمال ودفع غائلة الجوع عن المسكين والفقير ، وأنكر البعث والجزاء .

ونحو الآية قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

و بعد أن ذكر وعيد المشركين أردفه بوعد المؤمنين فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمر به ، وانتهوا عما نهى عنه — لهم عند ربهم جزاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قال السُّدّى : نزلت هذه الآية فى المرضى والزَّمْنَى والهَرْمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر مثل ما كانوا يعملون فى الصحة .

ونحو الآية قوله : « مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » وقوله : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ؟ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ

سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) .

شرح المفردات

فى يومين : أى فى نوبتين ، والرواسى : الجبال الثوابت ، أقواتها : أى أقوات أهلها ، سواء : أى كاملة لانقصان فيها ولا زيادة ، للسائلين : أى لطالبى الأقوات المحتاجين إليها ، استوى : أى عمد وقصد نحوها قصدا سويا من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجها لايلتفت معه إلى عمل آخر ، دخان : أى مادة غازية أشبه بالدخان ، فقضاهن : أى فرغ من تسويتهن ، أمرها : أى شأنها وما هى مستعدة له واقتضت الحكمة أن يكون فيها ، بمصابيح : أى بكواكب ونجوم ، وحفظا : أى وحفظناها حفظا من الآفات .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بأن يقول للمشركين : إن ما تلقيته بالوحى أن إلهكم إله واحد ، فأخلصوا له العبادة — أردف هذا بما يدل على كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض على أطوار مختلفة متعاقبة وأكمل لكل منها ما هى مستعدة له ، وزين السماء بالنجوم والكواكب الثوابت والسيارات ، ولا عجب فذلك تقدير العزيز الغالب على أمره ، العليم بكل ما فيهما لايخفى عليه شىء منهما ، فكيف يسوغ لكم أن تجعلوا الأوثان والأصنام شركاء له ، وليس لها شىء فى خلقهما وتقديرهما ، تعالى الله عن ذلك .

الإيضاح

(قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ؟) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك توبيخا وتقريعا . كيف تكفرون بالله الذى خلق الأرض التى تقلكم

فى نو بتين ؟ فتقولوا إنه لايقدر على حشر الموتى من قبورهم ، وتنسبوا إليه الأولاد ، وتقولوا إنه لم يبعث أنبياء — أى كيف تقولون هـذا ، مع أنه خلق الأرض فى يومين .

(وتجعلون له أنداداً) أى وتجعلون له أنداداً وأمثالا من الملائكة والجن والأصنام والأوثان .

ثم شدد عليهم فى الإنكار و بين أن مثل هذا لاينبغى أن يكون فقال :

(ذلك رب العالمين) أى ذلك الذى خلق الأرض فى نو بتين نو بة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ومرة جعلها ستا وعشرين طبقة فى ستة أطوار كما بين ذلك علماء طبقات الأرض (الجلوجيا) — هو رب العالمين لار بها وحدها ، فهو مر بى المخلوقات جميعا ، فإن ر باها فى نو بتين فقد ر بى غيرها فى نو بات يعلم سبحانه عددها ، فكيف يكون شىء منها ندا له وضر يبا ؟.

ثم بين إحكام ذلك الخلق وحسن تدبيره فقال :

(وجعل فيها رواسى من فوقها) أى وجعل فيها جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، أسسُها فى الأرض وهى الطبقة الصوانية ، وهذه الطبقة هى التى برزت منها الجبال ، فالجبال آساسها بعيدة الغور ضاربة فى جميع الطبقات واصلة إلى أول طبقة ، وهى الطبقة الصوانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم نستقر عليها ، فأرضنا كرة من النار غطيت بطبقة صوانية فوقها طبقات ألطف منها تكوّن فيها الحيوان والنبات على مدى الزمان ، والجبال نتوءات نشأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات آلاف الكيلو مترات ، وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحافظة للهواء والسحاب .

(و بارك فيها) أى وجعلها مباركة كثيرة الخيرات بما خلق فيها من المنافع ، فجعل جبالها مبدأ لجريان الأنهار ، ومخزنا للمعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس .

(وقدر فيها أقواتها) أى قدر لأهلها من الأقوات ماينا سب حال كل إقليم من مطاعم وملابس ونبات ، ليكون بعض الناس محتاجا إلى بعض ، فتروج المتاجر بينهم وتنتقل المحصولات من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر ، وفى هذا عمار للأرض وانتظام أمور العالم .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال :

(فى أربعة أيام) أى إن خلق الأرض وجعل الرواسى فيها فى نوبتين ، وإكثار خيراتها وتقدير أقواتها فى نوبتين فيكون ذلك فى أربع نوبات كما يقول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما : أى فى تتمة خمسة عشر يوما .

وقصارى ذلك — إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وخلق الجبال الرواسى فيها وتقدير الأقوات فى أربعة أيام .

(سواء للسائلين) أى فى أربعة أيام كاملة على وفق مراد طالب القوت ومن له حاجة إليه وهو كل حيوان على وجه الأرض كما قال : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فالناس والحيوان جميعا كلهم سائلون ربهم مايحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ورداء — سؤالا طبيعيا مغروسا فى جبلتهم .

ولما كان الإنسان يهتم بحال ماحوله من الأرض قدم ذكرها و بين أنها هى وما عليها قد كوّنها فى أربع نوبات ، فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فى ذلك معادنها ، ومرة للنبات وأخرى للحيوان .

ولما انتهى من الكلام فى الأرض أخذ يذكر السماء ، فالترتيب فى الذكر لحسب فقال :

(ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى ثم دعا داعى الحكمة إلى خلق السماء وهى مادة غازية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو بالسديم ؛ وتسمى فى العلم الحديث

(عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم عوالم كثيرة فى عالم السديم آخذة فى البروز كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت فى الأصل دخانا .

وعلى الجملة فالتكوين لم يكن فى لحظة واحدة ، بل كان على وفق الحكمة والنظام فى غير نوبة ، وكفى بكتاب مقدس أن يقول : إنه خلق الأرض فى نوبتين، وما عليها فى نوبتين ، والسموات السبع كذلك .

ثم ذكر ما كان من شأنهما بعد خلقهما فقال :

(فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) أى فقال لتلك العوالم السماوية ، وللأرض التى دارت حولها : ائتيا كيف شئتما طائعتين أو كارهتين فأجابتا قالتا أتينا طائعين ، قال ابن عباس : قال الله تعالى للسموات : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك ، وأخرجى شجرك وثمارك ، طائعتين أو كارهتين : « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

وفى هذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية ، فهى حركة تجرى جرى طاعة لاجرى قسر، فإنا نشاهد أنا نرمى الحجر إلى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية إلى جسم أكبر منه وهى الأرض ، وهكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التى هى أصلها بحركة دورية دائمة طوعا لا قسرا ، لأن القسرية كرمى الحجر إلى أعلى سريعة الزوال ، أما حركة الطاعة فهى دائمة مادام المطيع متخلقا بخلقه الذى هو فيه .

(فقضاهن سبع سموات فى يومين) أى فأتم خلقهن خلقا إبداعيا وأتقن أمرهن فى نوبتين سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة كما قال «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» على ماقتضته الحكمة وحسن النظام .

ومن ذلك يفهم وجه الحكمة فى قوله — فقال لها وللأرض الخ ، وهى الدلالة على أن حركة الإتيان منهما كانت معا ، فبينما نرى الأرض دائرة حول نفسها وحول

الشمس نرى الشمس دائرة حول نفسها وحول شموس أخرى أكبر منها ، فهذا هو السبب فى ذكرهما معا .

وقصارى ذلك — إنه قال لهما معا وأجابتاه معا ، لأن الأرض لما كانت ضمن المجموعة الشمسية كانت دائرة كبقية أجزائها .

(وأوحى فى كل سماء أمرها) أى وخلق فى كل منها ما استعدت له واقتضت الحكمة أن يكون فيها من بحار و برد وثلج إلى نحو أولئك مما لا يعلمه إلا الله ، قاله السدى وقتادة .

(وزينا السماء الدنيا بمصابيح) أى بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وهى و إن تفاوتت ارتفاعا وانخفاضا فكلها ترى متلألئة .

(وحفظا) أى وحفظناها من الاضطراب فى سيرها ومن اصطدام بعضها ببعض ، وجعلناها تسير على نهج واحد مادام هذا النظام باقيا حتى يأتى اليوم الموعود ، فهناك تختل نظمها كما قال سبحانه : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » .

(ذلك تقدير العزيز العليم) أى إن ذلك الذى تقدم هو تقدير العزيز الذى قد عزّ كلّ شىء فغلبه وقهره ، العليم بحركات مخلوقاته وسكناتها ، سرها ونجواها ، ظاهرها و باطنها .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) .

شرح المفردات

صاعقة : أى عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة . قال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأىّ شىء كان ، وهى فى الأصل الصيحة التى يحصل بها الهلاك ، أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، من بين أيديهم ومن خلفهم : أى من كل ناحية ، صرصرا : أى باردة تهلك بشدة بردها . أنشد قطرب قول الحطيئة فى المديح :

المُطْعِمُون إذَا هبَّتْ بصَرْصَرَةٍ والحاملون إذا استُودُوا على الناس

استودوا : أى سئلوا الدية . نحسات واحدها نحسة (بكسر الحاء) أى نكدات مشئومات ، والهون : الذل .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم عبادة الأنداد والأوثان وطلب إليهم ألا يعبدوا إلا الله الذى خلق السموات والأرض وزين السماء الدنيا بالمصابيح وأوجد فى الأرض جبالا رواسى أن تميد بهم ، ثم أعرضوا عن كل ذلك ، لم يبق حينئذ طريق للعلاج .

ومن ثم أمر رسوله أن ينذرهم بحلول شديد النقم بهم إن هم أصروا على عنادهم ، كما نزل بعاد وثمود من قبلهم .

الإيضاح

(فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك المكذبين لِمَا جئتهم به من الحق : إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله فإنى أنذركم بحلول نقمته بكم كما حلت بالأمم الماضية التى كذبت رسلها كعاد وثمود ومن على شاكلتهما ممن فعل فعلهما حين جاءتهم الرسل فى القرى المجاورة لبلادكم ، وأمروا أهلها بعبادة الله وحده ، فكذبوهم واستكبروا عن إجابة دعوتهم ، واعتذروا بشتى المعاذير كما ذكر ذلك سبحانه بقوله :

(قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون) أى قالوا إنا لانصدق برسالتكم فما أرسل الله بشرا ، ولو أرسل رسلا لأنزل ملائكة ، وإذاً فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا .

وقد تقدم فى غير موضع دفع هذه الشبهة الداحضة التى جاءوا بها .وقوله :

« بما أرسلتم به » ليس إقراراً منهم بكونهم رسلا ، بل ذكروه استهزاء بهم كما قال فرعون : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » .

أخرج البيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال « قال أبو جهل والملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ، ثم أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت السحر والكهانة والشعر، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى علىّ إن كان كذلك ، فأتاه فقال يا محمد : أنت خير أم هاشم ، أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه ، قال : لِمَ تشتم آلهتنا وتضللنا ؟ إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تكن بك الباءة (الميل إلى قربان النساء) زوجناك عشر نسوة تختارهن ، أىّ بنات

من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغنى به ، ورسول الله ساكت ، فلما فرغ قال صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم حٰمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا — حتى بلغ — فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ، فرجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا لا نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته الرحم ، ولقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب » .

وقد ذكرنا هذا القصص قبل برواية أخرى ، وهـذه الرواية أتم من سابقتها فأعدناها تكميلا للفائدة .

ولما بين سبحانه كفر قوم عاد وثمود إجمالا و بين معاذيرهما — أردف ذلك بذكر ما لكل منهما من الجناية وما حل به من العذاب فقال :

(فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟) أى فأما عاد فبغوا وعصوا ربهم ولم يقبلوا كلام الرسول الذى جاء لهم وقالوا من أشد منا قوة؟ حتى يستطيع قهرنا و إذلالنا ، وقد كانوا قوما طوال القامة شديدى الأسر ، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب ، وقد روى فى قوتهم روايات ليس بنا حاجة إلى تصديقها كقولهم : إن الرجل منهم كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ويجعلها حيث يشاء .

فرد الله عليهم موبخا بقوله :

(أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟) أى أما يفكرون فيمن يحاربون بالعداوة ؟ إنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ،

وإن بطشه لشديد ، وإنه لقادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء ، فيقول : (كن فيكون) .

(وكانوا بآياتنا يجحدون) أى وكانوا يعرفون أن آياتنا التى أنزلناها على رسلنا حق لامرية فيها ، ولكنهم جحدوها وعصوا رسله .

وقد يكون المراد : إنهم جحدوا الأدلة التكوينية التى نصبناها لهم ، وجعلناها حجة عليهم .

ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه فقال :

(فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) أى فأرسلنا عليهم ريحا باردة تهلك بشدة بردها ، وإذا هبت سمع لها صوت قوىّ لتكون عقوبة لهم من جنس ما اغتروا به .

ثم بين سبحانه وقت نزول العذاب عليهم فقال :

(فى أيام نحسات) أى فى أيام مشئومات نكدات متتابعات كما قال فى آية أخرى : « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » .

ثم بين الغاية التى من أجلها نزل العذاب فقال :

(لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) أى أنزلنا عليهم هذا العذاب كى نذيقهم الذل والهوان فى الحياة الدنيا بسبب ذلك الاستكبار .

ثم أرشد إلى أن هذا العذاب هين يسير إذا قيس بعذاب الآخرة فقال :

(ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون) أى ولعذاب الآخرة أشد إهانة وخزيا من عذاب الدنيا ، وهم لايجدون إذ ذاك نصيرا ولا معينا يدفعه عنهم .

وبعد أن ذكر قصص عاد أتبعه بقصص ثمود فقال :

(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أى وأما ثمود فبينا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ، ودللناهم على سبل النجاة بنصب الأدلة التكوينية ، وإنزال الآيات التشريعية ، فكذبوه واستحبوا العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان .

ثم ذكر جزاءهم على ما اختاروه لأنفسهم فقال :

(فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) أى فأرسلنا عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا ، بما كانوا يكسبون من الآثام بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله .

(ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى ونجينا صالحا ومن آمن معه من المؤمنين من ذلك العذاب ، فلم يمسسهم سوء ولا نزل بهم مكروه ، بإيمانهم وتقواهم وصالح أعمالهم .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)

شرح المفردات

يوزعون : أى يحبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم ؛ من قولهم ، وزعته : أى كففته ، جلودهم : أى جوارحهم ، أردا كم : أى أهلكم ، مثوى : أى مقام ، وإن يستعتبوا : أى يطلبوا العتبى والرضا ، من المعتبين : أى المجابين إلى ما يطلبون

يقال أعتبنى فلان : أى أرضانى بعد إسخاطه إياى ، قال الخليل : تقول استعتبته فأعتبنى : أى استرضيته فأرضانى ، قال النابغة فى اعتذارياته للنعمان بن المنذر :

فإن أكُ مظلوما فعبدٌ ظلمتَه وإن يك ذا عُتْبَى فمثلك يُعْتِبُ

المعنى الجملى

بعد أن بين كيف عاقب أولئك الجاحدين فى الدنيا وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون — أردف ذلك بذكر عقابهم فى الآخرة ، ليكون ذلك أتمّ للزجر ، وأكثر فى الاعتبار لمن اعتبر .

الإيضاح

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) أى واذكر أيها الرسول لقريش المعاندين لك حال الكفار يوم القيامة ، لعلهم يرتدعون ويزدجرون حين يساقون إلى النار ، فيحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قاله السدى وقتادة وغيرهما .

وفى هذا إيماء إلى كثرة عددهم وشدة سوقهم ودفعهم .

(حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) أى حتى إذا وقفوا على النار شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجوارحهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من المعاصى ، بعلامات متميزة تدل على الأخلاق المختلفة ، لكل خلق منها علامة خاصة نحن لا نعرف الآن كنهها ، وربما كانت سوائل روحية ، كل سائل يدل على خلق من الأخلاق كما يكون فى أنواع النبات والشجر روائح مختلفة ؛ فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة ، والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة ، وتلك السوائل تلازمهم فتكون مشقية لهم ومضايقة ، أو مفرحة لهم ومنعمة ، وهكذا الأجسام بعد الموت لا تشبه نفس نفسا أخرى فى أوصافها ، فهذه هى الشهادة التى تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم .

ثم ذكر سبحانه أنهم لاموا جوارحهم على أداء الشهادة التى تُلزمهم الحجة ، فحكى عنهم قولهم لها .

(وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟) أى قالوا على جهة اللوم والمؤاخذة لجلودهم حين شهدوا عليهم ، لم شهدتم علينا ؟ وقد كانوا فى الدنيا مساعدين لهم على المعاصى ، فكيف يشهدون عليهم الآن ؟ .

فأجابوهم حينئذ معتذرين :

(قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) أى قالوا : إن الله جعل فينا من الدلالات الفعلية ما يقوم مقام النطق ، بل ما هو أفصح منها ، فشهدنا عليكم بما فعلتم من القبائح .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : هل تدرون م أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول بلى . قال فيقول فإنى لاأجيز على نفسى إلا شاهدا منى . قال : يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه فيقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، قال ثم يُخَلَّى بينه و بين الكلام ، قال : فيقول بُعْدًا لكن وسُحْقًا ، فعنكنّ كنت أناضل » .

(وهو خلقكم أول مرة) فهو لايخالَف ولا يمانَع ، وقد جعل فيكم دلائل واضحة كخطوط اليد والإبهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها ، ولكنّ قليلا من الناس من يفطن إلى ذلك .

فمن قدر على خلقكم و إنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم إليه ، ومن ثم قال :

(وإليه ترجعون) أى و إليه مصيركم بعد مماتكم ، فيجازى كل نفس بما كسبت لامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ثم وبختهم جلودهم على ما كانوا يفعلون فى الدنيا فقالت لهم :

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) أى وما كنتم تَسْتَخْفون حين تفعلون قبيح الأعمال ، وترتكبون عظيم الفواحش - بالحيطان والحجب حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصى ، وتجحدون البعث والجزاء .

قال عبد الأعلى بن عبد الله الشامى فأحسن :

العمرُ ينقص والذنوبُ تزيد وتقال عَثْراتُ الفتى فيزيدُ
هل يستطيع جحودَ ذنب واحد رجلٌ جوارحُه عليه شهودُ
والمرء يُسأل عن سِنيه فيَشْتَهى تقليلَها وعن الممات يحيدُ

(ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) أى ولكن ظننتم عند استتاركم من الناس مع عدم استتاركم من أعضائكم أن الله لايعلم كثيرا مما كنتم تعملون من المعاصى فاجترأتم على فعلها .

والخلاصة — إنكم كنتم فى الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار حين ارتكاب الذنوب ، وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيرى الذى هو على صورة الجسم الظاهرى قد سطرت فيه جميع أعمالكم ، كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب .

وفى الآية إيماء إلى أنه لاينبغى للمؤمن أن تمر عليه حال إلا وهو يفكر فى أن الله رقيب عليه ، كما قال أبو نواس :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قُلْ علىَّ رقيب
ولا تحسبنّ اللهَ يغفل ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيب

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشى وثقفيان ، أو ثقفى وقرشيان ، قليلٌ فقه قلوبهم ، كثير شحم

بطونهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر إن سمع منه شيئا سمع كله ، قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ — إلى قوله مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أردا كم فأصبحتم من الخاسرين) أى وهذا الظن الفاسد الذى كان منكم فى الدنيا وهو أن الله لايعلم كثيرا من قبائح أعمالكم ومساويها — هو الذى أوقعكم فى مواقع التلف والردى ، فصرتم اليوم من الهالكين إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة إلى الشقاء ، فكفرتم نعم الخالق والرازق ، وانهمكتم فى الشهوات والمعاصى .

أخرج أحمد وأبو داود والطيالسى وعبد بن حميد ومسلم ، وأبو داود وابن ماجه وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قال العلماء : الظن قسمان :

(١) حسن ؛ وهو أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان ، قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل « أنا عند ظن عبدى بى » .

(٢) قبيح ؛ وهو أن يظن أن الله يعزب عن علمه بعض الأفعال .

وقال قتادة ، الظن نوعان : مُنْجٍ ومُرْدٍ .

(١) فالمنجى قوله : « إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ » وقوله : « الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ » .

(٢) والمردى هو قوله : «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» .

وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون على المعاصى ، ولا يتوبون منها ، ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

وقال الحسن البصرى : إن قوما ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وقد كذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

ثم أخبر عن حالهم فقال :

(فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) أى فإن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا وتكون النار مثوى لهم ومُقاما .

(وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى وإن يبدوا معاذير فلن تقبل منهم ولا تقال لهم العثرات .

ونحو الآية قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ » .

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا

أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

وقيضنا : أى يسرنا وهيأنا ، قرناء : واحدهم قرين : أى أخدانا وأصحابا من غواة الجن والإنس ، والغوا فيه : أى عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتهوّشوا عليه ، دار الخلد : أى دار الإقامة المستمرة ، تحت أقدامنا : أى ندوسهما بهما انتقاما منهما.

المعنى الجملى

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصى أردف ذلك بذكر السبب الذى من أجله وقعوا فى الكفر ، ثم حكى عنهم جناية أخرى وهى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن عملوا الحيلة فى عدم إسماع الناس له حتى لايتدبروا معناه ، فتشاغلوا حين قراءته برفع الأصوات وإنشاء الأشعار حتى يهوشوا على القارئ ويغلبوا على قراءته ؛ ثم ذكر أنهم حين يقعون فى العذاب الشديد يطلبون أن يروا من كانوا السبب فى وقوعهم فى الضلال من الجن والإنس ليدوسوهم تحت أقدامهم انتقاما منهم على أن صيروهم فى هذه الهاوية .

الإيضاح

(وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى وسلطنا عليهم إخوانا وأعوانا من شياطين الجن والإنس ، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات ، وما خلفهم من أمر الآخرة ، فألقوا إليهم أن لاجنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

وما يهلكنا إلا الدهر ، فسهل عليهم فعل ما يشتهون ، وركوب كل ما يتلذذون به من الفواحش .

(وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى ووجب عليهم من العذاب ما وجب على الذين كفروا من قبلهم ممن فعلوا فعلهم .

ثم علل استحقاقهم للعذاب فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) أى لأنهم استووا جميعا فى الخسار والدمار واستحقوا اللعن والخزى فى الحياة الدنيا والآخرة .

و بعد أن أخبر عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا بالقرآن فقال :

(وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) أى وقال الذين كفروا بالله ورسوله : لاتنصتوا لسماع هـذا القرآن ، وعارضوه باللغو والباطل بإنشاد الشعر والأراجيز حتى تهوشوا على القارئ لعلكم تغلبون على قراءته ، وتميتون ذكره .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ، فكان المشركون يطردون الناس عنه و يقولون : الغوا فيه بالبكاء والصفير و إنشاد الشعر .

قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى ما يقول .

وقد يكون المعنى لاتطيعوا . من قولهم : سمعت لك : أى أطعتك .

ثم أوعد الكفار بالعذاب الشديد فقال :

(فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى فلنذيقن الكافرين عذابا لايحاط بوصفه ، ولنجازينهم بأسوإ أعمالهم ، لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام و إكرام الضيف قد أحبطها الكفر ، ولم يبق لهم إلا القبيح ، ومن ثم لم يجازوا إلا على السيئات .

وفى هذا تعريض بمن لايخشع ولا يتدبر حين سماع القرآن ، وتهديد ووعيد لمن يصدر منه حين سماع القرآن ما يهوش على القارئ و يخلط عليه القراءة .

ثم بين العذاب الشديد الذى يحيق بهم فقال :

(ذلك جزاء أعداء الله النار) أى ذلك الجزاء المعدّ لأعداء الله هو النار .

(لهم فيها دار الخلد) أى إنهم مخلدون فيها أبدا لا انقطاع لعذابها ولا انتقال منها .

ثم ذكر أن هذا جزاء لما عملوا فقال :

(جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) أى هى جزاء لهم على جحودهم بآياتنا ، واستكبارهم عن سماعها .

ثم بين أنهم حين وقوعهم فى العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوهم من شياطين الإنس والجن فقال :

(وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) أى وقال الكافرون وهم يتقلبون فى العذاب : ربنا أرنا شياطين الإنس والجن الذين أوقعونا فى الضلال ندسهم تحت أقدامنا انتقاما منهم ومهانة وذلة لهم .

وقصارى ذلك — إنهم طلبوا من ربهم أن يريهم من أضلهم من فريق الجن والإنس من الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر ، والشياطين الذين كانوا يوسوسون لهم ويحملونهم على المعاصى .

والشياطين على ضربين : جنىّ وإنسىّ، قال تعالى : «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » وقال : « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وقال علىّ كرم الله وجهه : هما ابن آدم الذى قتل أخاه وإبليس أى لأنهما هما اللذان سنّا المعصية .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) .

شرح المفردات

استقاموا : أى ثبتوا على الإيمان ولم يرجعوا إلى الشرك ، أولياؤكم : أى أعوانكم فى شئونكم ، تدّعون : أى تتمنون وتطلبون ، النزل : ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله .

المعنى الجملى

بعد أن أسلف القول فى وعيد الكفار بما لم يبق بعده فى القوس منزع — أعقبه بهذا الوعد الشريف للمؤمنين كما هى سنة القرآن من إتباع أحدهما بالآخر كما جاء فى قوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

قال عطاء عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق .

الإيضاح

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى إن الذين قالوا ربنا الله اعترافا بربوبيته ، وإقراراً بوحدانيته ، ثم ثبتوا على ذلك فلم تزلّ أقدامهم ، ويدخل فى هذا كل العبادات والاعتقادات .

قال أبو بكر رضى الله عنه : الاستقامة ألا يشركوا بالله شيئا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى والبخارى فى تاريخه ومسلم والنسائى وابن ماجه وابن حبّان عن سفيان بن عبد الله الثقفى « أن رجلا قال : يا رسول الله مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتّقى ؟ فأومأ إلى لسانه » قال الترمذى حسن صحيح .

والخلاصة — الاستقامة : الاعتدال فى الطاعة اعتقاداً وقولا وفعلا مع الدوام على ذلك .

(تتنزل عليهم الملائكة) من عند الله سبحانه بالبشرى التى يريدونها من جلب نفع أو دفع ضر أو رفع حزن ؛ أى بكل ما يعنّ لهم من الشئون الدنيوية والدينية مما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام ، كما أن الكفار يغويهم قرناء السوء بتزيين المعاصى وارتكاب الآثام .

قال وكيع : البشرى تكون فى ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفى القبر ، وعند البعث.

(ألا تخافوا ولا تحزنوا) أى لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال .

وقال عطاء : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها.

(وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) أى ويقال لهم : أبشروا بالجنة التى وعدتم بها على ألسنة الرسل فى الدنيا ، فإنكم واصلون إليها ، مستقرون بها خالدون فى نعيمها .

ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من هذا كله فقال :

(نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى نحن أعوانكم فى أمور دنياكم نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم فى دنياكم ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤمّنكم من الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور ، ويوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم .

وقصارى ذلك — نحن المتولون حفظكم وولايتكم فى أمور الدنيا وأمور الآخرة ومن كان الله وليَّه فاز بكل مطلب ، ونجا من كل مخافة .

(ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم) من صنوف اللذات وأنواع النعم .

(ولكم فيها ما تدّعون) أى ولكم فيها ما تتمنون وتطلبون .

ونحو الآية قوله : « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » .

والجملة الأولى باعتبار شهوات أنفسهم ، والثانية باعتبار ما يطلبون سواء أكان مشتهى لهم أم لا ، إذ لايلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى كالفضائل العلمية ونحوها.

(نزلاً من غفور رحيم) أى أعطاكم ربكم ذلك كرامة من لدنه ، وهو الغفور لذنوبكم ، الرحيم بكم أن يعاقبكم بعد توبتكم .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟ (٣٣) وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) .

شرح المفردات

دعا إلى الله : أى دعا إلى توحيده ، المسلمين: أى الخاضعين ، الحسنة : ما ترضى الله ويتقبلها ، والسيئة : ما يكرهها ويعاقب عليها ، ادفع : أى ردّ ، والحميم: الصديق ، وما يلقاها : أى يتقبلها ويحتملها ، حظّ : أى نصيب وافر من الخير ، ينزغنك : أى يوسوسنّ لك ، وأصل النزغ : النخس ، فاستعذ بالله : أى التجئ إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن قرناء السوء يدعون إلى المعاصى — أردف ذلك بذكر حال أضدادهم الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته ، ثم أعقب هذا بأن الحسنة والسيئة لا يستويان ثوابا عند الله ، ثم أمر رسوله بدفع سفاهات المشركين وجهالاتهم بطريق الحسنى ، لما فى ذلك من تألف القلوب ، وارعواء النفوس عن غيّها ، وثوْبها إلى رشدها ، وأرشد إلى أن هذه فعلة لا يتقبلها إلا الصابرون على احتمال المكاره ، ومن لهم حظ عظيم من الثواب عند الله ، ثم ختم ذلك بتلك النصيحة الذهبية ، وهى أنه إذا صرف الشيطانُ المرءَ عن شىء مما شرعه الله فليتعوذ من شره ولا يطعه فى أمره ، والله سميع لما يقول ، عليم بكل ما يفعل ، وهو المجازى له على ذلك .

الإيضاح

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ؟) أى لا أحد أحسن قولا ممن جمع بين خصال ثلاث :

(١) الدعاء إلى توحيد الله وطاعته ، قال ابن سيرين والسُّدى وابن زيد والحسن : والداعى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولىّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خِيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

(٢) العمل الصالح بفعل الطاعات ، واجتناب المحرمات .

(٣) أن يتخذ الإسلام دِينا ويخلص إلى ربه ، من قولهم : هذا قول فلان أى مذهبه ومعتقده .

وقد يكون المراد أنه يتلفظ بذلك ابتهاجا بأنه منهم وتفاخرا به مع قصد الثواب .

و بعد أن ذكر محاسن الأعمال التى بين العبد وربه — ذكر محاسن الأعمال التى بين العباد بعضهم مع بعض ترغيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على أذى المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان فقال :

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) أى ولا تتساوى الحسنة التى يرضى الله بها ويثيب عليها ، والسيئة التى يكرهها ويعاقب عليها .

وقد يكون المعنى — ولا تستوى دعوة الرسول إلى الدين الحق بالطرق المثلى ، والصبر على سفاهة الكفار ، وترك الانتقام منهم — وما أظهروه من الغلظة والفظاظة فى قولهم : « قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » وقولهم : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » .

والخلاصة — إن فعلك أيها الرسول حسنة ، و إن فعلهم سيئة ، فإذا أتيت بهذه الحسنة استحققت التعظيم فى الدنيا ، والمثوبة فى الآخرة ، وهم بضد ذلك ، فلا ينبغى أن يكون إقدامهم على السيئة مانعا من الاشتغال بالحسنة .

ثم ذكر بعض الحسنات ووضحها بذكر بعض ضروبها فقال :

(ادفع بالتى هى أحسن) أى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق التى هى أحسن الطرق ، فقابل إساءتهم بالإحسان إليهم ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر والإغضاء عن الهفوات ، واحتمال المكاره ، فإنك إن صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفههم بالغضب ، ولا أذاهم بمثله ، استحيوا من ذميم أخلاقهم ، وتركوا قبيح أفعالهم .

ثم بين نتائج الدفع بالحسنى فقال :

(فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولىّ حميم) أى إنك إن فعلت ذلك انقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغض إلى المودة ، قال عمر : ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وقال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر

عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم .

وروى أن رجلا شتم قَنْبَرا مولى علىّ بن أبى طالب ، فناداه علىّ يا قَنْبَر دع شاتمك ، وألهُ عنه تُرض الرحمٰن ، وتسخط الشيطان .

وقالوا ما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه ، ولله در القائل :

وللكفُّ عن شتم اللئيم تكرما أضرُّ له من شتمه حين يُشْتَم

وقال آخر :

وما شىء أحبُّ إلى سفيهٍ إذا سبَّ الكريم من الجواب
متاركةُ السفيه بلا جواب أشدُّ على السفيه من السِّباب

وقال محمود الوراق :

سأُلزم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه لدىّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره وأُتْبِع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صُنْتُ عن إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا تفضلتُ إن الفضل بالحلم حاكم

وقال آخر :

إن العداوة تستحيل مودةً بتدارك الهفوات بالحسنات

قال مقاتل : نزلت الآية فى أبى سفيان بن حرب كان معاديا للنبى صلى الله عليه وسلم فصار له وليًّا فى الإسلام حميما بالمصاهرة .

ثم نبه إلى عظيم فضل هذه الطريق بقوله :

(وما يلقاها إلا الذين صبروا) أى ومايقبل هذه الوصية و يعمل بها إلا الصابرون

على تحمل المكاره وتجرّع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ، فإن ذلك يشق على النفوس ، ويصعب احتماله فى مجرى العادة إلا من عصم الله .

وقال أنس فى تفسير ذلك : الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنتَ صادقا غفر الله لى ، وإن كنتَ كاذبا غفر الله لك .

(وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى وما يتقبلها إلا ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة .

قال قتادة : الحظ العظيم الجنة ، أى وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة .

ثم ذكر طريقا لمنع تهييج الشر ودفع الغضب إذا بدت بوادره فقال :

(وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) أى وإن وسوس إليك الشيطان ليحملك على مجازاة المسىء فاستعذ بالله من كيده وشره ، واعتصم من خطراته ، إنه هو السميع لاستعاذتك منه ، واستجارتك به من نزغاته ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك ، العليم بما ألقى فى رُوعك من نزغاته وحدثتك به نفسك وما قصدت من صلاح ، ونويت من إحسان .

ومن شياطين الإنس من يفعل مثل هذا ، فيصرف عن الدفع بالتى هى أحسن ، فيقول لك: إن فلانا عدوك الذى فعل بك كيت وكيت ، فانتهِز الفرصة ، وخذ ثأرك منه لتعظم فى عينه وأعين الناس ، ولا يظنّ فيك العجز وقلة الهمة وعدم المبالاة إلى نحو أولئك من العبارات المثيرة للغضب التى ربما لاتخطر ببال شياطين الجن — نعوذ بالله من شر كل شيطان .

والخلاصة — إن صرفك الشيطانُ عما شرعتَ فيه من الدفع بالحسنى ، فاستعذ بالله من شره ، وامض لشأنك ، ولا تطعه .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) .

شرح المفردات

الآية : هى البرهان والحجة ، يسأمون : أى يملّون ، خاشعة : أى جامدة يابسة لا نبات فيها ، اهتزت : أى تحركت ، وربت : أى انتفخت .

المعنى الجملى

لما ذكر فى الآيات السابقة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى ـ أردفه بذكر الدلائل على وجوده تعالى وقدرته وحكمته ، تنبيها إلى أن الدعوة إلى الله هى تقرير الدلائل على ذاته وصفاته ، ثم ذكر منها الدلائل الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر ، ثم أتبعها بآية أرضية تشاهد رأى العين فى كل حين وهى حال الأرض حين خلوّها من المطر والنبات ، ثم حالها بعد نزول المطر ، فهى تنتعش بعد أن كانت ميتة ، وتهتز بعد أن كانت ساكنة ، والذى أحياها هو الذى يحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير .

الإيضاح

(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) أى ومن حجج الله تعالى على خلقه ودلالتها على وحدانيته وعظيم سلطانه — الليل والنهار ، ومعاقبة كل منهما صاحبه ،

والشمس ونورها ، والقمر وضياؤه ، وتقدير منازلها فى فلكيهما ، واختلاف سيرهما فى السماء ، ليعرف بذلك مقادير الليل والنهار والأسابيع والشهور والأعوام ، وبذلك تضبط المعاملات وأوقات العبادات .

ولما كانت الشمس والقمر من أجل الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى نبه إلى أنهما مخلوقان مسخران له تعالى وهما تحت قهره وسلطانه فلا تعظموهما وعظموا خالقهما فقال :

(لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) أى لا تسجدوا أيها الناس للشمس والقمر ، فإنهما إنما يجريان بمنافعكم بإجراء الله إياهما طائعين له فى جريهما ، وهما لا يستطيعان لكم نفعا ولا ضرا ، فلله فاسجدوا ، وإياه فاعبدوا دونهما ، لأنهما لا فضيلة لهما فى أنفسهما ، فيستحقا بها العبادة من دون الله ، ولو شاء الله لأعدمهما أو طمس نورهما .

وفى هذا رد على الصابئة الذين عبدوا الكواكب والنجوم ، وزعموا أنهم بعبادتهم إياها يعبدون الله ، فنهوا عن ذلك .

(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) أى فإن استكبر هؤلاء المشركون الذين يعبدون هذه الكواكب وأبوا إلا أن يسجدوا لها وحدها دون الله — فالله لا يعبأ بهم ، فالملائكة الذين فى حضرة قدسه وهم خير منهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يسبحون له ويصلون ليلا ونهارا ، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملّون .

ولما ذكر الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال :

(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أى ومن الأدلة على قدرته تعالى على البعث وإحياء الموتى بعد بِلاها وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها — أنك ترى الأرض يابسة غبراء لا نبات بها ولا زرع ،

فإذا نزل عليها من السماء الغيث تحركت بالنبات وانتفخت وأخرجت ألوان الزرع والثمار ، كما يشاهد من ارتفاع الأرض وانتفاخها ثم تصدعها وتشققها إذا حان ظهور النبات منها ، وتراه يسمو فى الجوّ ويغطى قشرتها ، ثم تتشعب عروقه ، وتغلظ سُوقه .

(إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير) أى إن الذى أحيا هذه الأرض الدارسة ، وأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع — قادر على أن يحيى أموات بنى آدم بعد مماتهم ، وهو القدير على كل شىء ، لا يعجزه شىء كائنا ما كان.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) .

شرح المفردات

يقال: ألحد الحافر فى الأرض : إذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق منها ، والمراد بالملحدين المنحرفون فى تأويل الآيات بحملها على المحامل الباطلة ، والذكر . القرآن ، من بين يديه ومن خلفه : أى من جميع جهاته ، حكيم : أى فى جميع أفعاله ، حميد : أى محمود إلى جميع خلقه بكثرة نعمه عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الدعوة إلى دين الله أسمى المقاصد ، وأنها إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث يوم القيامة — أعقب هذا بتهديد من ينازع

فى تلك الدلائل بإلقاء الشبهات ، ثم هددهم بضروب من التهديد ، فهددهم بقوله : « لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا » و بقوله : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » و بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ الخ » .

الإيضاح

(إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا) أى إن الذين يميلون عن الحق فى حججنا تكذيبا بها وجحودا لها — نحن بهم عالمون لايخفون علينا ، ونحن لهم بالمرصاد إذا وردوا علينا ، وسنجازيهم بما يستحقون .

ولا يخفى ما فى ذلك من شديد الوعيد كما يقول الملك المهيب: إن الذين ينازعوننى فى ملكى أعرفهم ، ولا شك فهو يريد تهديدهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم .

ثم بين كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال :

(أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟) أى أفمن يلقى فى النار لإلحاده بالآيات وتكذيبه الرسول خير أم من آمن بها وجاء يوم القيامة من الآمنين حين يجمع الله الخلائق للعرض عليه والحكم بينهم بالعدل ؟ لاشك أنهما لا يستويان.

وظاهر الآية العموم وتمثيل حالى المؤمن والكافر ، وقيل المراد بمن يلقى فى النار أبو جهل ، و بمن يأتى آمنا النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن بشير بن تميم قال : نزلت فى أبى جهل وعمار بن ياسر .

و بعد أن أبان لهم عاقبة الملحدين بالآيات والمؤمنين بها ، هددهم بقوله :

(اعملوا ما شئتم) فقد علمتم مصير المسىء والمحسن ، فمن أراد أحد الجزاءين فليعمل له فإنه ملاقيه .

(إنه بما تعملون بصير) أى إنه بأعمالكم ذو خبرة وعلم لاتخفى عليه خافية منها ولا من غيرها ، وهو مجازيكم على حسب أعمالكم .

ثم بين أولئك الملحدين بقوله :

(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) أى إن الملحدين هم الذين جحدوا هذا القرآن وكذبوا به حين جاءهم .

ثم وصف الذكر بقوله :

(١) (وإنه لكتاب عزيز) أى وإنه لكتاب عزيز عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون ، منيع عن كل عيب ، محمىّ بحماية الله .

(٢) (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أى ليس للبطلان إليه سبيل ، فلا تكذبه الكتب السابقة عليه كالتوراة والإنجيل ، ولا يجىء من بعده كتاب يكذبه ، قاله سعيد بن جبير والكلبى .

وقال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه ، وبه قال قتادة والسُّدّى .

وقصارى ذلك — إن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد لديه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ، فكل ما فيه حق وصدق وليس فيه ما لا يطابق الواقع .

(٣) (تنزيل من حكيم حميد) أى وهو تنزيل من عند ذى الحكمة بتدبير شئون عباده ، المحمود على ما أسدى إليهم من النعم التى منها تنزيل هذا الكتاب ، بل هى أجلها .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ

مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد الملحدين فى آياته — سلّى رسوله عما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم فى كتابه ، وحثه على الصبر، وألا يضيق صدره بما حكاه عنهم من نحو قولهم: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ،وقولهم: فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ، فما قاله أولئك الكفار فى شأنه وشأن ما أنزل إليه من القرآن لايعدو شأن ما قاله أمثالهم من الأمم السابقة ، ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم — بأنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضا وقالوا مالنا وللعجمة ؟. ثم ذكر أن القرآن هداية وشفاء للمؤمنين ، والذين لايؤمنون به فى آذانهم صمم عن سماعه ، ثم ذكر أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم ، فقومك ليسوا ببدع فيها بين الأمم ، ثم أبان أن المرء وما عمل ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولا يظلم ربك أحداً .

الإيضاح

(ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أى ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذبون ما جئتهم به من عند ربك إلا مثل ما قالته الأمم التى كذبت رسلها من قبلهم ، فاصبر على ما نالك منهم من أذى كما صبر أولو العزم من الرسل ، وقد يكون المعنى — ما يقال لك من التوحيد و إخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك و إن اختلفت فى غير هـذا ، تبعا للزمان والمكان .

ونحو الآية على المعنى الأول قوله : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » .

وعلى المعنى الثانى قوله : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

ثم ذكر علة أمره بالصبر فقال :

(إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) أى إن ربك لذو مغفرة للتائبين إليه من ذنوبهم بالصفح عنهم ، وذو عقاب مؤلم لمن أصرّ على كفره ومات على ذلك قبل التوبة .

ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم فقال :

(ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمى وعربى ؟) أى ولو جعلنا هذا القرآن الذى أنزل إليك بلغة العجم — لقال قومك من قريش : هلا بينت أدلته وما فيه من حكم وأحكام بلغة العرب حتى نفقهه ونعلم ما هو وما فيه ، وكانوا يقولون منكرين : أقرآن أعجمى ولسان المرسل إليهم عربى ؟

وخلاصة ذلك — لو نزل بلسان أعجمى لقالوا هلا بينت آياته باللسان الذى نفهمه ، ولقالوا : أكلام أعجمى والمرسل إليهم عرب خلص ؟

ثم بين حال القرآن لدى المؤمنين والكافرين فقال :

(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) أى قل لهم ردّا على قولهم : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ : إن هذا القرآن للذين صدقوا بما جاءهم به من عند ربهم — هاد إلى الحق، شاف لما فى الصدور من ريبة وشك ، ومن ثم جاء بلسانهم معجزا بيّنا فى نفسه مبينا لغيره .

ونحو الآية قوله : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

(والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) أى والذين لا يؤمنون بالله

ورسوله و بما جاءهم به من عنده فى آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن فلا يستمعون له بل يعرضون عنه ، وهو عليهم عمى فلا يبصرون حججه ومواعظه .

ونحو الآية قوله فى وصفه « وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » .

ثم مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم له بحال من ينادى من مكان بعيد لايسمع من يناديه فقال .

(أولئك ينادون من مكان بعيد) قال الفراء تقول العرب للرجل الذى لا يفهم كلامك: أنت تنادى من مكان بعيد ، ولثاقب الرأى: إنك لتأخذ الأمور من مكان قريب ، شبهت حال هؤلاء المكذبين فى عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا إليه ، بحال من ينادى من مسافة نائية لايسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه .

ثم بين أن هؤلاء المكذبين ليسوا بدعا بين الأمم فى تكذيبهم بالقرآن ، فقد اختلف من قبلهم فى التوراة فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) أى ولقد أرسلنا موسى وآتيناه التوراة فاختلفوا فيها ، فمن مصدق بها ومن مكذب ، وهكذا شأن قومك معك ، فمن مصدق بكتابك ومن مكذب به ، فلا تأس على ما فعلوا معك واسلك سبيل أولى العزم من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين فقد اصطبروا وأوذوا وكان النصر حليفهم والتوفيق أليفهم وكتب الله لهم الفلج والفوز على أعدائهم المشركين وأهلك الله القوم الظالمين .

ثم أخبر سبحانه أنه أخر عذابهم إلى حين ولم يعاجلهم بالعقاب على ما اجترحوا من تكذيب الرسول وجحدهم بكتابه فقال :

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) أى ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى يوم القيامة بنحو قوله : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » وقوله : « وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » لعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاك المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة .

ثم بين ما يقتضى إهلاكهم فقال :

(وإنهم لفى شك منه مريب) أى وإن قومك لفى شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم حين قالوا ما قالوا ، بل كانوا شاكين غير محققين لشىء مما كانوا فيه من عنادك ومقاومة دعوتك .

ثم بين أن الجزاء من جنس العمل وأنه لايظلم ربك أحداً فقال :

(من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) أى من عمل بطاعة الله فى هذه الحياة فأتمر بأمره وانتهى عما نهى عنه فلنفسه عمل ، لأنه يجازى عليه الجزاء الذى هو له أهل ، فينجو من النار ويدخل جنة النعيم .

ومن عصى الله فعلى نفسه جنى ، لأنه أكسبها سخط الله وأليم عقابه ، وقد قالوا فى أمثالهم (إنك لاتجنى من الشوك العنب) وما ربك أيها الرسول بحامل عقوبة ذنب على غير مكتسبه ، بل لايعاقب أحداً إلا على جرم اكتسبه فى الدنيا .

ونحو الآية قوله : « أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » .

اللهم وفقنا لعمل الصالحات ، وأبعدنا عن ارتكاب الآثام والموبقات ، وألهمنا التوفيق لما يرضيك ، والبعد عما يسخطك .

وقد كان الفراغ من تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم قبيل فجر الليلة السادسة عشرة من ذى الحجة سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من هجرة النبى الكريم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلّ ربنا على محمد وآله .